ماتيو فالكوني رجل عند الخمسين ، متكتل العضل ، مفتول الذراعين ، عريض ما بين المنكبين ، خفيف الحركة كالسنور ؛ له عينان كبيرتان تنبعث منهما أشعة قوية نفاذة ، وشفتان رقيقتان ، وشعر أسود جعد . ذهب سمعه فى أرجاء وطنه — جزيرة قورسيقا — عا له من قدرة عجيبة على إصابة الهدف فهو أنى رمى أصاب ، سواء بالليل أم بالنهار . وهو لطيف المعشر ، رضىّ الخلق ؛ فاذا جُرّح أو امتهن فهو عدو لدود فيه العتو والجبروت ، ينزل عن إنسانيته حتى يبلغ من خصمه مأربا ...

رحل ماتيو فالكوني عن مسقط رأسه الذى نُشّئ فيه وترعرع إلى ثغر بورتوفيكيو فى جنوب الجزيرة ليعيش هناك عيشة الهدوء والطمأنينة فى منزل ريفى وضيع تحيط به غابة متشابكة الأشجار ، ملتفة الأغصان ، فى منأى عن صخب الحياة ولجبها وقضى دهراً من عمره يتعهد بنفسه قطعة من الأرض وبعض قطعان الغنم ، فينال من كل ذلك مالاً رفعه إلى صف أعيان الريف وأغنيائه ؛ ثم هو سخى سمح طلق اليدين والوجه ، سريع إلى الخير ، بطىء عن الشر

تزوج ماتيو من جيوزيبا صغيراً فرزق منها ثلاث بنات تزوجن جميعاً ؛ واستطاع هو أن يجد المعونة فى أزواج بناته ، غير أن قلبه ما زال حزيناً يأسف على أن لم يحبه الله بذكر يحمل عنه بعض ما يثقله من أعباء الحياة ومتاعبها ... ثم جاءه البشير ... لقد ابتسمت له الأيام عن طفل هو أمل الأسرة الحلو ، وواحدها ، ووارث اسمها ومالها .. هو فورتناتو ؛ ودرج الطفل قرة عين أبيه وأمه معاً يسهران عليه ، ويحبوانه بعطف منهما ورعاية ، ثم راحا ينشئّانه ليكون صنو أبيه فشب وفى عينيه دلائل الشجاعة والفراهة ، وفى جسمه سمات القوة والفتوة ...

* * *

وفى ضحوة يوم من أيام الخريف — والطفل فى العاشرة — انطلق الأب وزوجته يستطلعان خبر غنمهما ، وأراد الابن أن يصحبهما فأبى الأب إلا أن يظل عند الدار يحرسها

وتصرمت ساعات والطفل وحده يتطارح حيناً فى دعة أمام الباب ، تحت أشعة الشمس الهادئة ؛ وحيناً يستمتع بالنظر إلى أشجار الغابة الباسقة ، وإلى الجبال الشاهقة على مرمى البصر ؛ ويتلذذ حيناً بالأخيلة الجميلة تضطرب فى رأسه حين يخيل إليه أنه سيزور المدينة يوم الأحد فيرى عمه القائد ، ويجول فى أرجائها فيشهد أشياء حرم منها حيناً من الدهر ؛ وسيطرت عليه الفكرة فابتسم ، غير أن صوتاً سلبه من لذة الخيال وأفزعه عن مكانه فهب يرى ... وأحس كأن قلبه ينخلع من الذعر والخوف ، لأن ما سمع هو صوت طلقات نارية سريعة

ومتوالية تقترب منه رويداً رويداً . وأجال بصره فيما حواليه فما بداله غير شبح يداف إليه من الغابة يتكفأ فى طريقه ، ويتحامل فى مشيته ، من أثر الأين والتعب ، والدم يتقاطر أرسالا من فخذه

لاجرم ، فهذا مجرم انسل ، والليل ساج ، إلى المدينة ؛ فانحط عليه الجند ، فأساس وانقاد بعد لأى ثم وجد مهرباً فأفلت يريد الحرية ويحطم قيود السجن وهى تنتظره على خطوات ؛ وهم على أثره لا يصيبهم الجهد ، ولا ينال منهم النصب ، يعطرونه بوابل من بنادقهم ، وهو يدفعهم عن نفسه بالرصاص والهرب فى وقت معاً

لقد كان ضخم الجثة ، حيوانى المظهر ، زرى الهيئة ، رث الملابس ، كث اللحية مرسلها ، أشعث أغبر يبعث فى النفس الفزع والرعب ، غير أن الاعياء تركه محطماً ضعيفاً

ثم انتهى إلى الصبى ، ووقف بازائه يطلب إليه أن يجد له منفذاً « إننى جيانيتو سانبيبروا ؛ إن الشرطة على أثرى ، وأنا لا أستطيع الهرب ، أفلا أجد فى دارك ملجأ ؟ » وأشاح الطفل عنه — بادى ذى بدء — وأبى عليه بعض ما طلب ؛ فراح الرجل يهدد ويتوعد ، غير أن الطفل كان يرى ما يقاسى من ألم وما أصابه من كلال فقفز بعيداً وهو يقول : « لا بندقتك تستطيع أن تصل إلى لأنك تفتقر إلى الذخيرة ، ولا حربتك تنال منى مأربا لأننى فى حصن منها حصين ! » وأحس الرجل بعاقبة أمره فاندفع يستعطف الصبى فى ذلة ، ويترضاه فى لين ، ويلوح له بقطعة فضية من النقود يداعبها بأصابعه ؛ فاستيقظت الشفقة والرحمة فى قلب الصبى ، ورأى فى قطعة النقود أجر ما يقدم من خير فتعلق بها بصره ... ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة رقيقة وهو يدس القطعة فى جيبه ، ويهيل التبن على المجرم الجريح ؛ ثم انطلق يمحى آثار الدم فى دقة ومهارة ؛ ثم استلقى أمام الباب كأن شيئاً لم يكن ..

* * *

وجاء الشرطة — بعد حين — وعلى رأسهم ضابط ... إنه هو تيودورو جامبا ابن عم فورتناتو ، وهو فتى يفور قوة ونشاطاً ، يتقصص المجرمين والجناة لا تأخذه بهم رأفة ولا شفقة ، ويتقفى آثارهم فى غير هوادة ولا لين ...

وابتسم الضابط وهو يسير إلى ابن عمه فورتناتو يسأله خبر المجرم الفار : « أوما رأيت رجلاً يمر بك الساعة ؟ » قال الصبى : « آه نعم ، رجل يمر بى الساعة ! » قال الضابط : « نعم رجل ذو لحية طويلة ينزف الدم من فخذه » قال فورتناتو وهو يعبث بابن عمه : « نعم ، تذكرت ، إنه الفس ، لقد كان يعطى صهوة جواده الجميل بيرو . . . » وثار غضب الضابط أن رأى الصبى يهزأ به ، فقال : « لقد رأيته ، فأين هو ؟ قل أيها الخبيث وإلا . . . » وراح الصبى يسخر من الضابط : « أفترانى أستطيع أن أراه وأنا نائم فى هدوء ؟ » ، فقال الضابط المغيظ فى شدة : « قل أيها اللعين ، إنه مر بك الساعة ! » ، وأجاب الصبى وهو يبسم فى تهكم : « أنا فورتناتو ، وهذه دار أبى ماتيو فالكونى ، أفتريد أن تستجم ؟ »

ونفد صبر الضابط ، فاندفع فى حنق يأمر الشرطة : « إلى الدار أيها الرفاق ، فلا بد أن يكون هذا الشيطان قد خبأ المجرم ! » . وانطلق الشرطة يصدعون بما أمروا ، وأمسك الضابط بأذن الصبى عنفه وهو يتململ ويصيح : « إن أبى ماتيو فالكونى لا يرضيه أن يدخل جماعة من الأغراب داره وهو

غائب ! » ، وراح الضابط يهدد الصبي : « أولى لك فأولى ! أفلا تعلم أنني قادر على أن أحملك إلى كورت أو إلى باستيا فألقي بك في غيابة السجن ترسف في أغلال من حديد ، ثم أضع رقبتك بين حدي المقصلة جزاء ما فعلت ؟ » ، وأغرق الصبي في الضحك لما سمع . . .

وارتد الشرطة بعد أن وجدوا الخيبة والفشل وجاء واحد منهم إلى الضابط يقول : « لم نجد أحدا فلنلتمس طريقاً غير هذا ! »

وبدت الدهشة على وجه الضابط جامدا حين خيل إليه أنه مني بالاخفاق ، واضطرب حين لم يجد الطريق إلى فريسته . إن الدار أمامه ، وهو يستطيع أن يرى كل ما فيها في نظرة خاطفة ؛ فما هي غير حجرة واحدة عارية عن الأثاث ، لقد سيطر عليه الارتباك ، والصبي إلى جانبه يداعب قطته ويبسم لما هم فيه من حيرة

ياضيعة المجهود ، ويا خيبة الأمل ! لقد هموا يريدون الرجوع بعد ما بذلوا من جهد ، وما لاقوا من عناء ، غير أن عيني الضابط لمعتا حين بدت له بارقة من أمل . لقد تهدد الصبي فما أجدى التهديد ، وتوعده فما أغنى الوعيد ؛ فليطرق باباً غير هذا عله . . . فالتفت إلى الصبي : « فورتناتو ، لقد ظننت بك سوءا ، ولكنني وجدتك شجاعا ذكيا ، ليتك تصحبني ! » قال فورتناتو وهو ما يزال يعبث بأبن عمه : « جامبا ، أسرع إلى عملك وإلا اختفى جيانيتو فلا تعثر عليه أبدا ؟ » وأخرج الضابط ساعته الفضية وهو يقول : « أفلا تريد أن يكون لك مثل هذه الساعة ، فتمشي الخيلاء بين رفاقك في شوارع المدينة ، وقد علقت في صدرك كأنها وسام ، والناس من حولك ينظرون ويعجبون ، ثم يتدافعون نحوك يسألونك : « كم الساعة ؟ » وأنت تبسم . . . وبدا للضابط أن عيني الطفل قد انبعث منهما شعاع من أمل ، وشعاع من طمع ، وهو يحدج الساعة بنظراته ، ويقول : « لا ، لا أريد ، إنه حين تكبر سني سيعطيني عمي القائد ساعة أجمل من هذه » قال الضابط : « حقاً ، غير أن لابنه ساعة كهذه ، وهو أصغر منك سناً » ، وخيل إلى الصبي أن الضابط يسخر منه ليستدرجه فقال : « أفتهزأ بي ؟ » قال الضابط وهو يقدم الساعة إليه ، وقد عاد إليه الأمل مرة أخرى : « ها هي ذه فخذها ، ثم أخبرني أين هو المجرم جيانيتو ؟ » ، وتقدم الصبي في هدوء نحو الساعة رويداً رويداً وهو يراها وهاجة براقة ؛ تحت أشعة الشمس ، تخطف البصر ، ثم أمسك بها بقلبها بين يديه ، وقد استبشر وانبسطت أساريره ، ونفسه تحدثه : « ألق بقطعة النقود إلى صاحبها ، وخذ هذه فهي أغلى وأثمن ! » ، واصطرعت في نفس الصبي عوامل الوفاء والجشع ؛ أفيخون عهده وينقض مواثيقه ؟ ولكن الساعة .. الساعة ! أفيفقدها بعد إذ احتوتها يداه ؟

وغلبه الحرص والطمع وحب المال جميعاً ، وهو قبالة ابن عمه الضابط ، ومن خلفه كومة التبن ؛ فرفع يده في هدوء يشير إلى الوراء ... إلى كومة التبن ...

* * *

وتدافع الشرطة يبعثرون كومة التبن هنا وهناك ، فانفرجت عن جريح لا يستطيع أن يحمل نفسه ، وفي لمحة البصر نزع الشرطة عن جيانيتو بندقته وحربته ، وشدّوا وثاقه ؛ غير أنه استطاع أن يدير بصره نحو الصبي ، ومن حجاجيه شرر

يتطاير ، ثم بصق وهو يقول : « أيها الس ... ! » وألقى الصبي بقطعة نقوده ، وچيانيتو فى شغل عنها يقول للضابط : « عزيزى جامبا : إننى لا أستطيع السير ، فسترغمون على حملى ! » ، وشمخ الضابط بأنفه فى كبرياء ، وصعّر خدّه فى صلف ثم قال : « إن نشوة الانتصار ، ولذة الفوز يبعثان فىّ قوة أستطيع بها أن أحملك وحدى على كتفى حتى نبلغ المدينة »

وتفرق الشرطة ، فبعض يأسو جراح چيانيتو وبعض يهيئ له سريراً من قش ، والضابط بازائهم ينظر ... وعلى خطوات الصبي فورتناتو يداعب ساعته فرحاً متهالاً ... وبينا كل فى عمله لا يبى ولا يتباطأ هبط ماتيو فالكونى وزوجته ...

* * *

ووقف ماتيو فالكونى حائراً لا يدرى مما حواليه شيئاً ، ولكن جامبا اندفع يقص القصة ويثنى على فورتناتو ، ويشكر ما أسداه إليه من خير ، واستطرد فى حديثه : « إن هذا المجرم الأثيم قد دفعنا عنه فى قوة وشدة ، ثم اندس فى التبن ، فما استطاع واحد أن يستشعر وجوده ، ولولا فورتناتو ... » ، وصاح الأب والأم معاً : « فورتناتو ! » ، قال الضابط فى هدوء : « نعم ، لولا فورتناتو ما استطعنا أن نعثر عليه ، ولذهب فى الهباء ما عانيناه من شدة وما بذلنا من جهد . سأخبر عمه القائد ليرسل إليه جائزة سنية ، وسأسجل اسمك واسمه فى التقرير الذى أرفعه إلى النائب العموى » ، واستشعر الأب شدة الصدمة فصدع قلبه حين بدا له أن ابنه باع شرفه بالثمن البخس ، فصاح من الأعماق صيحة خافتة كأنها صدى خفقات قلبه المكلوم : « يا للخيبة ، يا للخيبة ! » ، ثم التفت فوجد چيانيتو ماثل على سرير من قش ، شُدّ إليه فى غير رفق ولا لين ، وثبت بصره على الرجل فما استطاع أن يحوله وفى رأسه الأسى والأسف ، وفى وجهه العبوس والحزن ، وفى عينيه اللوعة والحسرة ؛ فرأى الرجل يدير بصره نحو الدار فيبصق ويقول : « هنا ، هنا دار الخائنين السفلة ! »

أى امرئ تحدثه نفسه أن يهين هذا الرجل القورسيقى وهو يضن بكرامته أن تثلم ، ويصون شرفه أن يمتهن ؟ ويل له ... ويل لمن تنفرج شفتاه عن كلمة يستشعر منها ماتيو بالاهانة والسخرية إن طلقة واحدة من بندقيته ، أو رمية واحدة من حربته هى العقاب الوحيد لمن يفعل ! ثم هو لا يطمئن خاطره أو يهدأ باله إلا أن يغسل الاهانة بدم المتبجح الجرىء ! ولكن ... ولكن ما ذا يفعل وابنه هو الذى ثلم عرضه ولوّث شرفه ؟ لقد أحس بوخزات الألم تحز فى قلبه ، ورأى الفضيحة والعار فيما فعل ابنه ، فوضع يده على جبينه المتسعر والهموم تتنازعه ...

وأراد الابن أن يترضى الرجل المسكين حين رأى ما ارتسم على وجه أبيه فولى وجهه شطر الدار ومشى يثاقل ثم عاد وبين يديه وعاء ملئ لبناً وقدمه فى ذلة وخضوع الى چيانيتو ، غير أن الرجل صرخ فى وجهه : « تنح ، تنح أيها الـ ... » ثم التفت الى شرطى الى جانبه يطلب اليه ماء ... لقد شرب من يد الشرطى وهو كان — منذ فترة — يصب عليه وابلا من رصاص ؛ أما ابن ماتيو ... ماتيو فالكونى ...

* * *

وانطلق الضابط والشرطة يحملون المجرم الى

المدينة ، وماتيو وجيوزيبا فى مكانهما مطرقين وقد اربد وجههما . والصبي بينهما يردد بصره فى وجه أمه حيناً وفى وجه أبيه حيناً آخر وقد ذهل عن نفسه . ثم نظر الأب الى ابنه فى قسوة وقال فى صوت أجش كأنه قصف الرعد : « حسن ما فعلت ! » وصرخ الصبي فزعاً : « أبى ، أبى ! » ثم انطلق يجثو عند قدمى أبيه والعبرات تتناثر من محجريه تسأله العطف والرحمة ؛ فصاح الأب : « تنح ، تنح أيها النذل ! » فجمد فى مكانه

ورأت الأم طرف السلسلة يتدلى من جيب صديرية الصبي فقالت : « أنى لك هذه ؟ » قال : « أعطانيها ابن عمى جامبا » فنزعها الأب فى شدة وألقى بها فى عنف على صخرة فتحطمت قطعاً قطعاً وهو يقول : « هذا هو أول خائن فى أسرتنا ! »

وانهمرت عبرات الطفل مرة أخرى ، وماتيو يحدجه بنظرات قاسية ملتهبة ، ثم صار فى صمت نحو الغابة وبندقيته على كتفه ، ثم . . . ثم نادى الصبي فتبعه وهو يبكى ؛ وانطلقت جيوزيبا على أثرهما وقلبها يضطرب ، والأرض تكاد تميد بها من فرط الشجن ؛ وأمسكت بذراع زوجها تستعطفه « ماتيو ، ماتيو ، إنه ابنك » فقال الرجل فى غيظ « ارجعى ، ارجعى ! إنه ابنى وأنا أبوه ! » فراحت المرأة تضم ابنها اليها فى قوة كأنها تريد أن تنتزعه من بين يدى أبيه ، وهى تذرف الدمع السخين . وعادت الى الدار تجثو عند رسم العذراء ، و تصلى فى خشوع وضراعة

وفى قلب الغابة ، عند صخرة كبيرة ، وقف الرجل ثم نادى ابنه : « تعال ، تعال هنا يا ولد ، اركع واقرأ صلواتك ! » غير أن الصبي اندفع نحو أبيه : « أبى ، أبى لا تقتلنى ! » فزأر الرجل زئيراً دوى له المكان وتزلزلت منه قوة الصبي « اقرأ صلواتك ! » فامتثل الصبي مرغماً . ثم رفع رأسه بمدحين ، وفى عينيه العبرات ، فقال الرجل : « هل أتممتها ؟ » فهفا الصبي نحو أبيه « آه ، أبى ! أبى لا تقتلنى ! الرحمة يا أبى والصفح ! لن أعود لمثلها . سأطاب الى عمى القائد أن يعامل سجينه بالحسنى . أبى لا تقتلنى ! ! إننى ابنك ؛ لقد أخطأت فأرجو الغفران والشفقة ! » ثم اندفع فى حديثه يابن ما قسا من قلب أبيه ، ولكن الأب كان قد صوب إليه بندقيته وهو يقول : « فليسامحك الله »

وأراد الصبي أن ينكب على قدمى أبيه يقبلهما ، غير أن المنية لم تمهله .. لقد دوت الرصاصة فاستقرت فى قلب الطفل فخر يتلوى ويتخبط فى دمه المتفجر وهو يئن : « آه ، آه ، آه يا أبى ! »

وقفل ماتيو راجعاً دون أن يلقى نظرة واحدة على جثة الصبي الهامدة

* * *

وسمعت الأم — وهى راكعة تصلى عند تمثال العذراء — دوى الطلق الناري فانشقت كبدها أسى ولوعة ، وتمزق فؤادها جزعاً على ابنها وأهلها ، حين بدا لها أنها فقدته إلى الأبد ؛ ثم انطلقت فى جنون الثكلى تمزقها المصيبة عركا . وعلى خطوات من الدار رأت الأب يعود مطرقا ذاهلاً ، تتوزعه الهموم وتتناهبه الأحزان بعد أن نفذ القضاء ، فاندفعت إليه وهى تصيح : « ابنى ! ماذا ، ماذا فعلت ؟ » فأجاب الرجل فى صوت خافت ضعيف فيه أنّات المفئود : « العدل ، العدل يا عزيزتى جيوزيبا ! » قالت : « وأين هو ؟ » قال : « هناك هناك فى المنحدر ، سأدفنه . لقد مات سأستغفر له ربى ! »

كامل محمود حبيب